مهيئات قول الشعر في التراث البلاغي والنقدي العربي

د/ علي بن علي أحمد الراعي
باحث في الدراسات الادبية والنقدية

ملخص البحث:

يعرض هذا البحث فكرة حيوية تناثرت ألآراء حولها في كتب تراثنا البلاغي والنقدي، هي فكرة المهيئات التي تعين الشاعر على الإبداع في إنتاج الشعر، ولا يرمي في هذا البحث دراسة المهيئات في ذاتها، وإنما بيان علاقة تلك المهيئات بالصناعة الشعرية، ودورها في شحذ همة الشاعر وصقل موهبته. وتبين من خلال البحث أن تلك المهيئات قد تمثلت في العوامل النفسية المتولدة عن التجربة الحياتية التي عاشها الشاعر، وانقسمت تلك العوامل النفسية إلى أربعة أقسام رئيسية ، فمنها ما ارتبط بالشاعر الإنسانية كالطرب والغضب والنشوة، ومنها ما ارتبط بالزمان، ومنها ما ارتبط بالمكان ، والقسم الأخير هو ما ارتبط بمناح أخرى مثل الحبس والخلوة و التعشق ... إلـــــخ. وخلص البحث إلى إن المهتمين بالصناعة الشعرية في التراث البلاغي والنقدي(شعراء ونقاد) قد أدركوا أن الموهبة الشعرية لم تكن كافية عند كثير من الشعراء(ومنهم الفحول) لإبداع قصائدهم، والوصول بها إلى درجة عالية من الجودة الفنية؛ لذلك فقد حرصوا على اقتناص العوامل الأخرى التي تعينهم على ذلك، وتفعيل تلك العوامل بأقصى درجة ممكنة يمكن الإفادة منها. ومن هنا أصبح هذا البحث يجيب على سؤال مهم، هو: ما المهيئات؟ وما دورها في إنتاج القول الشعري؟

مقدمة :

يهدف هذا البحث إلى التعرف على مفهوم تلك المهيئات، وبيان مدى تأثيرها في عملية إنتاج الشعر، ومدى ارتباط المهيئات بالأغراض الشعرية، ويبرز كيفية تعامل الشعراء ومن ثم البلاغيين والنقاد الأوائل مع تلك القوى والمهيئات حتى استقرت في وعيهم النقدي.

مفهوم المهيئات:

نعني بالمهيئات تلك العوامل الخارجية التي تتعلق بالإبداع القولي الشعري، ويتوسل بها الشاعر لشحذ همته الفنية، وإيقاد موهبته لقول الشعر في أغراضه المتعددة، ومقاصده المتنوعة، من غير أن نخوض في عملية الإبداع الشعري نفسها وعواملها مثل قوة الطبع، وحسن توظيف اللغة، والتفنن في نسج الصور الشعرية.

مهيئات القول الشعري:

لقد نالت المهيئات التي تعين الشاعر في عملية إنتاج الفن القولي، والإبداع فيه، اهتمام البلاغيين والنقاد الأوائل، وقد تجلى ذلك الاهتمام في تعدد الزوايا التي نظروا إليها أثناء تقييمهم للأعمال الشعرية، فالجاحظ(ت/255هـ) حين ينظر إلى الشعر على أنه " صناعة ، وضرب من الصبغ وجنس من التصوير"[1] فإننا ندرك مدى أهمية أن يحرص صاحب هذه الصناعة على اقتناص العوامل التي تساعده على الإجادة في صناعته، وهذا دأب أهل كل صناعة، فهم يحرصون على ما يفيدهم في صناعتهم . و يستطيع الباحث في التراث الفكري البلاغي والنقدي العربي أن يدرك أن البلاغيين والنقاد الأوائل قد أشاروا إلى فكرة مثلت عاملاً مهمًا في الصناعة الشعرية. وقد تجسدت هذه الفكرة في إرجاع مقدرة الشاعر الفنية على نسج الشعر إلى عدد من العوامل والمهيئات الطبيعية والنفسية المتصلة بالشاعر، والمتعلقة بشؤون حياته وبيئته .

ولعلنا لا نخطئ حين نقرر أن العامل النفسي يكاد يكون المهيئ الأبرز والأهم في صناعة الشعر، فالشعر في حقيقته هو استجابة نفسية لمؤثرات خارجية تمكنت من التأثير على الشاعر، ومثلت تجربة معينة في حياته .

ومن خلال دراسة تراثنا البلاغي والنقدي وجدنا أن النقاد والبلاغيين الأوائل قد أكدوا أهمية المهيئات النفسية وجعلوها على أضرب كما سنتبين في هذا البحث .

**المهيئات النفسية المرتبطة بالمشاعر الإنسانية(الخوف والطمع والنشوة والغضب) :

لقد مثَّلت هذه المهيئات النفسية عاملاً مهمًا لإنتاج الشعر عند الشعراء، والنقاد على حدٍّ سواء، فهاهو أبو نواس يُسأل : كيف عملك حين تصنع الشعر؟ قال : أشرب حتى إذا ما كنت أطيب نفسًا بين الصاحي والسكران صنعت ، وقد داخلني النشاط ، وهزتني الأريحية[2].

ويذكر ابن طباطبا العلوي (ت . 322هـ) حكاية أرطأة بن سُهية حين دخل على عبد الملك بن مروان فسأله: " ما بقي من شعرك؟ فقال : ما أطرب ، ولا أحزن يا أمير المؤمنين، وإنما يقال الشعر لأحدها"[3]. ويروي صاحب العمدة هذه الحكاية وفيها زيادة، إذ يقول فيها أرطأة " والله ما أطرب ، ولا أغضب، ولا أشرب، ولا أرغب، وإنما يجيء الشعر من إحداها "[4]، فقد أرجع هذا الشاعر إلى عامل نفسية عدة، هي الفرح، والحزن، والنشوة، والرغبة، وعَلَّلَ توقفه عن قول الشعر لأنه لم يعد يمر بإحدى تلك الحالات النفسية؛ فانعدم السبب الذي يهيج قريحته الشعرية .

هذه المسألة يؤكدها العسكري(ت .395هـ) حين يذكر الرأي النقدي الذي يرى أنه "لاختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه ما قيل: كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب "[5]، ويلاحظ الدارس أن هذا الرأي يحيل القدرة الإبداعية عند الشعراء لقول الشعر في كلِّ غرض بعينه إلى اختلاف تأثير المهيئات النفسية فيهم.

ويسوق صاحب الأغاني(ت . 356هـ) حكاية سؤال الفرزدق لحمَّاد الراوية أيهما أشعر هو أم جرير، فقال حمَّاد :"أنت في بعض الأمر، وهو في بعض، فقال(الفرزدق): لم تناصحني، فردَّ حمَّاد: هو أشعر إذا أرخي في خناقه، وأنت أشعر منه إذا خفت، أو رجوت، فقال الفرزدق: وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء، وعند الخير والشر؟ "[6].

فنلاحظ من هذه الحكاية إصرار الفرزدق على معرفة المواطن الشعرية التي يتفوق فيها على جرير، فلم يقتنع بالجواب الأول لحمَّاد، بل أصر عليه للبيان أكثر، فلما عرف مواطن تفوق جرير، ومواطن تفوقه على جرير، وهي حين شعوره بالخوف، أو الرغبة، والرجاء، جعل قريحة الشعر متوقفة على هذين العاملين، وكأنه يؤكد أن مواطن تفوقه هي المواطن الصحيحة لقياس الشعراء ، ومدى إجادتهم .

ويتبدى لنا اهتمام أهل صناعة الشعر بمعرفة المتفوقين في قول الشعر، وأسباب تفوقهم في كثرة الروايات التي تدور حول أسئلتهم عن هذه الجزئية النقدية ، ومنها ما أورده الأصمعي من جواب يونس النحوي للسائل الذي سأله من أشعر الناس ؟ فقال :" لا أومئ إلى رجل بعينه ، ولكني أقول : امرؤ القيس إذا غضب ، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب"(7)

وتزداد هذه الفكرة رسوخًا في الوعي النقدي العربي القديم حين يتناولها الشعراء في أحكامهم على بعضهم ، فالحطيئة يُسأل " من أشعر الناس ؟ قال : الذي يقول:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقي الشتم يشتم

يعني زهيراً ، قال ثم من ؟ قال : الذي يقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيبُ

يريد عبيد بن الأبرص، قيل له فبعده من؟ فأخرج لسانه وقال : هذا إذا رغب "(8)، وهذه الحكاية تكاد تتطابق مع الحكايات التي أبرزت جانب المهيئات النفسية في عملية نقد الإبداع الشعري، فالحطيئة بدأ بحكم عام حكم فيه بالتفوق لشاعر من خلال بيت واحد، ثم عاد وبين أن سبب تفوقه في النظم الشعري هي الرغبة التي تدفعه لإجادة الإبداع.

ويسير ابن رشيق القيرواني (ت .456هـ) على منوال سابقيه في التأكيد على أهمية المهيئات النفسية وبيان دورها في بعث الوهج الإبداعي عند الشاعر، فيرى أنه لما كان الناس لا يسيرون على وتيرة واحدة وسياق فني محدد في النظم، بل تعددت أمزجتهم ومقاصدهم، فقد صارت لهم ضروب متباينة يستدعون بها الشعر، فتشحذ القرائح، وتنبه الخواطر، وتلين عريكة الكلام، وتسهل طريق المعنى، كلٌ امرئ على تركيب طبعه، واطراد عاداته(9)، ثم يورد ما حكاه الأصمعي عن ابن أبي طرفة "كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب، وزاد قومٌ: وجرير إذا غضب "(10)، ويذكر أنه " قيل لكثير . أو لنصيب . من أشعر العرب؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا شرب"(11).

وقد شاعت هذه الآراء في المصنفات البلاغية والنقدية القديمة، فأبو زيد القرشي(ت . 170هـ) قد أورد في الجمهرة ما ذُكر عن الأصمعي حين قال " كفاك من الشعراء أربعة ... زهير إذا طرب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا غضب، وعنترة إذا كَلِب "(12).

ولا يبتعد ابن حمزة العلوي (ت .705هـ) عن هذا المنحى النقدي حين قسَّم الشعراء إلى ثلاث طبقات فالطبقة الأولى عنده هم المتقدمون من الشعراء في الجاهلية كامرئ القيس وزهير والنابغة ، ثم يذكر أن بعض الأذكياء سئل عن وصفهم فيما أتوا به من الشعر فذكر ذلك "[13].

ويورد القلقشندي (ت . 821هـ) الرواية ذاتها مع شيء من التغيير[14].

ولعل هذا هو السبب الذي جعل النقاد الأوائل يعدّون امرأ القيس على رأس الشعراء المشهود لهم بالإجادة في وصف الخيل[15] .

وارتباط التفوق الإبداعي في النظم بالمهيئات لا يلزم أن يختص الشاعر بغرض بعينه لما يتوافق مع مهيئاته عنده وترك باقي الأغراض لشعراء آخرين، إذ أن الوعي النقدي العربي قد أشار إلى أن الشاعر الواحد يبدع في كل الأغراض إذا وافق كلٌّ منها الدافع والباعث النفسي الذي يتوافق معه، فالحصري القيرواني (ت . 43هـ) يذكر إحدى مقامات بديع الزمان الهمذاني التي يورد فيها قول أحدهم حين سئل عن النابغة وقدرته الفنية في الشعر فقال:" ينسب إذا عشق، ويَثْلِبُ إِذَا حَنِقَ ، وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ، وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهِبَ ، فَلاَ يَرْمي إِلاَّ صَائِباً "[16]، فكل حالة نفسية توفر له مهيئًا يمكّنه من الإبداع في غرض محدد والتفوق فيه.

ويأتي حازم القرطاجني (ت /684هـ) ليؤكد فكرة البلاغيين السابقين، مدركًا بذلك أهمية المهيئات النفسية، وتأثيرها في قول الشاعر، فهو يقرر في بداية كتابه منهاج البلغاء أنه "يجب على من أراد جودة التصرف في المعاني، وحسن المذهب في اجتلابها، والحذق بتأليف بعضها إلى بعض، أن يعرف أن للشعراء أغراضًا أُوَل، هي الباعثة على قول الشعر، وهي أمورٌ تحدث عنها تأثيرات وانفعالات للنفوس، لكون تلك الأمور مما يناسبها، ويبسطها، أو ينافرها، ويقبضها، أو لاجتماع البسط، والقبض، والمناسبة، والمنافرة في الأمر"[17]، وهو بهذه الفكرة يربط بين المهيئات النفسية الناتجة عن حالة شعورية عند الشاعر، وما يصدر عنها من قول، فيكون هو الغرض المناسب لها.

ثم يفصِّل حازم هذه الفكرة مبينًا أن " الارتياح للأمر السار إذا كان صادرًا عن قاصدٍ لذلك أرضى فحرَّك إلى المدح والارتماض للأمر الضار إذا كان صادرًا عن قاصد لذلك أغضب فحرَّك إلى

الذِّم "[18]، هذا بالنسبة للأمور المقصودة، وتنطبق الفكرة ذاتها على الأمور غير المقصودة.

وهكذا ندرك أن الحالة النفسية وما يتولد عنها من مشاعر مثل الرضى أوالسخط تمثل . في وعي حازم البلاغي والنقدي . مولدًا قويًا لقول الشعر، وباعثًا للتفنن فيه، حتى صارت موجهًا لغرض القصيدة، ومقصدها.

**** المهيئات النفسية المرتبطة بالزمان :**

إن من أقدم ما وصل إلينا من تراثنا البلاغي والنقدي من إشارات تؤكد على أهمية حسن اختيار المهيئات، ودورها في إنتاج الشعر رسالة بشر بن المعتمر التي ينصح فيها كلَّ من أراد أن ينتج كلامًا إبداعيًا بقوله " فخذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرّة، من لفظ شريف، ومعنى بديع"[19]، فبِشرُ في هذا القول يرشد المنشئ إلى تحيّن الساعات المناسبة للقول، حين تواتيه الفكرة، وتتجلى أمامه المعاني، وتتسخر الألفاظ، فتلك الساعات المختارة . وإن قلَّ الإنتاج الفني فيها . تمكِّن المنشئ من الإبداع، وهي خيرٌ من ساعات أخرى تتداخل فيها الأفكار، وتكثر الشواغل، ولا يتمتع فيها المنشئ بالقدر المطلوب من صفاء الذهن، ولين الخاطر .

ويرى ابن قتيبة الدينوري(ت . 276هـ) أنَّ للشعر أوقاتًا يسرع فيها أتيُّه، ويسمح فيها أبيُّه، منها أول الليل قبل تغشي الكرى، وصدر النهار قبل الغداء[20].

ونجد العسكري يؤكد . أيضاً . على فكرة بشر ذاتها؛ فيخاطب من أراد أن يصنع كلامًا فنيًا بقوله "... وأعمله ما دمت في شباب نشاطك، وإذا غشيك الفتور، وتخونك الملال فأمسك"[21]، فهو يحرص على أن يكون جهد المنشئ في ساعة ذروة نشاطه الفكري، فإذا شعر بأي ملل، أو كلل، فليتوقف عن الإنتاج، فالشاعر حين يقول أبياتًا في غرضٍ ما وهو في لحظة نشاط فكري، ونشوة إبداعية، يأتي إبداعه جميلاً درجة فنية عالية، فإذا تغيرت تلك الساعة فقد يتبدل خاطره، ويهبط مستواه الفني، ويسيء بعد إجادة .

ويورد الحصري القيرواني(ت .453هـ) وصية أبي تمَّام للبحتري يحثه فيها على اختيار الزمن المناسب للإنتاج الشعري، فيقول له "يا أبا عبادة تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صفرٌ من الغموم، واعلم أنَّ العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، ذلك أن

النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم"[22]، وكأن الليل ، ووقت السحر . خاصة . قد مثَّل مهيئًا زمنيًا فريدًا في فكر أولئك البلاغيين؛ فابن رشيق القيرواني يؤكد هذه الفكرة، ويذكر أن جريرًا " كان إذا أراد أن يؤبد قصيدةً صنعها ليلاً "[23]، فإذا كان هذا حال جرير ، ذلك الشاعر الفحل، يختار وقتًا بعينه لينسج قصيدة، وهو الوقت الذي يناسب روحه، وفكره لتخليد إنتاجه الشعري، فما بالنا ببقية الشعراء الذين هم أدنى مرتبةً فنيةً منه، فهم يطلبون الساعات الملائمة للقول أكثر من غيرهم.

وكان ابن رشيق يرى . أيضًا . أن السحر أفضل الأوقات للقول، لأن السحر ألطف هواءً وأرقُّ نسيمًا[24]، ونلاحظ من خلال هذه الفكرة لابن رشيق أنه قد اتفق مع أبي تمام في اختيار وقت السحر، وإن اختلف معه في تعليل اختياره، ويمكن أن نعدّ ذلك من باب تنوع الفوائد، والمميزات لذلك الوقت .

ويذكر ابن بسَّام الشنتريني(ت . 542هـ) قول ابن الحنَّاط الشاعر القرطبي الضرير بما يتفق مع هذه الفكرة ، إذ أشار إلى اختيار الوقت الملائم لقول الشعر، لما يتميز به ذلك الوقت من توفير التهيئة الفكرية، والصفاء النفسي للشاعر، إذ يقول "في ليلة بتُّها والكف الخضيب سوارها البدر، والشعرى وشاحها النسر، وكأنما سماؤها روضة تفتحت النجوم وسطها زهرًا، وتفجرت المجرة خلالها نهرًا، وادٍ يسيل بعسجد على رضراضِ زبرجد، فلما أصبت الغرة، و أقصدت الثغرة، تقلبت عرارًا، وتناومت غِرارًا، حتى أنبهني الفجر ببرده، وسربلني الصباح ببُرده، وهببت من النوبة، وصحوت من النشوة، فزففتها إليك بنت ليلتها عذراء"[25]، فقد اختار الليل، وهام فيه، وتأمل سماءه ونجومه، حتى كأنه خرج عن إطار الحسِّ بالموجودات حوله، فغرق مع قصيدته في بحر نشوته، ولم ينتبه إلا وضياء الشمس قد ملأ الأرض .

**** المهيئات النفسية المرتبطة بالمكان :**

المكان هو تلك المساحات، والمواضع من الأرض التي يطلبها الشاعر لتعينه على نظم الشعر، وللمكان أهميته التي تتجاوز الموقع الجغرافي إلي كونه باعثًا فنيًا مساعدًا في الإبداع الشعري، ومن المسلم به عند النقاد أن التشكيل التصويري هو أحد ركيزتي القول الشعري، لذلك فالشاعر حين يحرص على تجويد شعره فإنه ينتقي الأماكن التي توفر أكبر قدر ممكن من البواعث الجمالية التي تعينه في تشكيل جزئيات البناء التصويري في العمل الشعري.

إن ارتباط الشاعر بالمكان وحاجته إليه لا يقتصر على الحاجة المادية المباشرة، وإنما استجابة لدافع نفسي عند الشاعر، فهو ينظر إلى الخضرة . مثلاً . ولا تعنيه الزروع في ذاتها بقدر ما ينظر إلى رمزية الحياة في ذلك الاخضرار.

وحين نعود إلى تراثنا البلاغي والنقدي نجد عددًا من الشواهد التي وردت في هذا النوع من المهيئات، فقد دلَّت تلك الشواهد على اهتمام البلاغيين ، وأهل صناعة الشعر بقدرة المكان على التأثير في نفسية الشاعر، فقد سُئل كثير " كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ قال: أطوف فى الرِّباع المخيلة، والرياض المعشبة، فيسهل عليَّ أرصنه، ويسرع إليَّ أحسنه "[26]، فهذا المكان من الأرض الخالية، والمروج الخضراء، والتجوال فيها هو التي يسهل على الشاعر. من وجهة نظر كثير. التصرف في فنون الشعر.

ومن النقاد الأوائل من يرى أنه ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الخالي[27].

ويذكر ابن رشيق القيرواني أن الفرزدق " كان إذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته، وطاف خاليًا منفردًا وحده في شعاب الجبال، وبطون الأودية، والأماكن الخربة الخالية، فيعطيه الكلام قياده "[28].

وحين نصل إلى حازم القرطاجني نجده يرى أن من أسباب اكتمال النظم الشعري مراعاة المهيئات، فيؤكد أن " الشعر لا يتأتى نظمه على أكمل ما يمكن فيه إلا بحصول ثلاثة أشياء، هي: المهيئات، والأدوات، والبواعث "[29]، ثم يقسِّم المهيئات إلى قسمين، هما "1/النشء في بقعة معتدلة الهواء، حسنة الوضع، طيبة المطاعم، أنيقة المناظر، ممتعة من كل ما للأغراض الإنسانية به علقة،2/ والترعرع بين الفصحاء والألسنة، المستعملين للأناشيد، المقيمين للأوزان "[30]، وهذه المهيئات (المكانية) هي البيئة التي يقرر حاتم أنها تصنع الشاعر، وتمكنه من إجادة فنون الشعر، وتملكه ناصية اللغة .

فهذه الآراء كلها شواهد على أن الشعراء والبلاغيين الأوائل كانوا يقيمون للمكان أهمية كبيرة في إنتاج الشعر الجيد، فالأماكن التي خصُّوها بالذكر تتمتع بخواص طبيعية عدة، إذ فيها تصفو النفس، وتكاد تتحد مع الطبيعة، ويخلو فيها الفكر من هموم الحياة والمعيشة، فيزداد التأمل، وتتأتى المعاني، وتنقاد القوافي، وتسهل الألفاظ، فأصبح اختيار مثل تلك الأماكن على قدر من الأهمية لتوليد الطاقة الإبداعية عند الشاعر.

**** المهيئات النفسية المرتبطة بعوامل أخرى:**

وهناك عدد من الآراء للبلاغيين والنقاد الأوائل تشير إلى مهيئات نفسية ارتبطن بعوامل أخرى مثلت دافعًا لنظم الشعر، ولعل من أهم ما أشار إليه النقاد الأوائل من تلك العوامل: الخلوة، والحبس، والغربة، والشعور بالانتقاص، والترعرع بين الفصحاء، والصبر، والعشق، والمنافسة الشعرية .

فيرى ابن قتيبة أن الخلوة في الحبس، والمسير، من مهيئات قول الشعر[31]، كما يبين تأثير ضرب من العوامل النفسية في خلق شاعر متقدم مشهود له، فهو يعدَّ الشعور الانتقاص من المهيئات قول الشعر من خلال تفسيره لنظم عنترة معلقته، فيذكر أن السبب الذي حمل عنترة على نظم قصيدته المعلقة " أنه كان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة، حتى سار به رجل من قومه فعابه بسواده وسواد أمه، وأنه لا يقول الشعر، فأجابه عنترة أبلغ جواب "[32].

كذلك ذهب صاحب الأغاني في روايته لقصة جرير حين تعرض لإهانة من جندل ابن راعي الإبل النميري، فأراد أن يرد عليه ردًا قاسيًا، إذ " انصرف جرير غضبان حتى إذا صلى العشاء بمنزله في علية له قال ارفعوا إلي باطية من نبيذ، وأسرجوا لي، فأسرجوا له وأتوه بباطية من نبيذ، قال فجعل يهمهم، فسمعت صوته عجوز في الدار فاطلعت في الدرجة حتى نظرت إليه فإذا هو يحبو على الفراش عريانا لما هو فيه، فانحدرت فقالت: ضيفكم مجنون! رأيت منه كذا وكذا، فقالوا لها: اذهبي لطيّتك نحن أعلم به وبما يمارس، فما زال كذلك حتى كان السَّحَر، ثم إذا هو يكبِّر قد قالها ثمانين بيتا في بني نُمير فلما ختمها بقوله

(فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيرٍ فلا كَعْباً بلغتَ وَلا كِلاَبَا)

كبَّر ثم قال: أخزيتُه ورب الكعبة "[33]، إذن فالتعري والتقلب في الفراش قد مثَّلا عاملاً مهمًا في شحذ قريحة جرير الفنية، وإيقاد نار الهجاء اللاذع الذي قهر به الراعي النميري.

ويُعدُّ الفرحُ بالنصر من المهيئات الحيوية في الإبداع الشعري، إذ نجد عبد الكريم النهشلي (ت 405هـ) يروي ما شاع عن النابغة أن الشعر ارتج عليه أربعين سنة، ثم كانت لبني جعدة وقعة ظهروا

على عدوهم، فاستخف النابغة الفرح فراض القريض، فلان له ما كان استعصب عليه، فقالوا : والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسرُّ منا بالظفر بعدونا[34]).

كما يذكر ابن رشيق أن جريرًا قد تمرغ في الرمضاء يقول: أنا أبو حرزة، حين أراد أن يكتب قصيدةً يردُّ بها على الفرزدق، الذي صنع شعرًا، وحلف أن جريرًا لا يغلبه فيه[35]، فكأن التمرغ في التراب الساخن، والصياح يثيران حميَّةً شخصية تتولد عنها قريحة شعرية فذَّة يستطيع أن يواجه بها خصومه الشعراء.

وسُئل ذو الرُّمة "كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفتاحه! قيل له: وعنه سألناك، ما هو؟ قال: الخلوة بذكر الأحباب"[36]، وعلَّق ابن رشيق على هذا الجواب بقوله " فهذا لأنه عاشق"[37]، ومن هذا القول ندرك أن ابن رشيق بوعيه النقدي قد ربط بين الخلوة بذكر الحبيب، وشعر الشق والهيام، فالخلوة عنده من المهيئات التي تتناسب مع موهبة شاعر عاشق، وتشحذ قريحته.

وهكذا يتضح لنا أن الشعراء الفحول لم ركنوا إلى قوة طبعهم، وسلامة سليقتهم في قول الشعر، إذ غدا معلومًا "أن الطبع وحده لا يكفي لإبداع الشعر الجيد "[38].

كما استقر في وعي النقاد العرب الأوائل أن الشعر يتهيأ لصاحبه، وتقوى قريحته من خلال كثرة مذاكرة الشعر ومطالعته، فالمذاكرة " تقدح زناد الخاطر، وتفجر عيون المعاني، وتوقظ أبصار الفطنة "[39]، ومطالعة الأشعار تؤثر إيجابًا في الشاعر، فهي " تبعث الجسد وتولد الشهوة "[40]. ثم يورد حكاية تبين لنا مدى حرص الشعراء على توفير المهيئات التي تثير موهبته الشعرية، ومنها قوله " وكان أبو تمام يُكْرِهُ نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره.. حكى ذلك عنه بعض أصحابه، قال: استأذنت عليه وكان لا يستتر عني فأذن لي فدخلت فإذا هو في بيت مصهرج* قد غُسل بالماء، يتقلب يميناً وشمالاً، فقلت: لقد بلغ بك الحَرُّ مبلغاً شديداً، قال: لا، ولكن غيره، ومكث كذلك ساعة، ثم قام كأنما أطلق من عِقال، قال: الآن الآن، ثم استمد، وكتب شيئاً لا أعرفه، ثم قال: أتدري ما كنت فيه ؟ قلت: كلا، قال: قول أبي نواس:

كالدهرِ فيه شراسةٌ ولِيانُ

أردت معناه فشَمَسَ عليَّ حتى أمكن الله منه، فصنعت:

شَرِستَ، بل لِنتَ، بل قانيتَ ذاك بذا فأنت لا شكَّ فيك السهلُ والجبلُ[41].

ونستطيع أن نلحظ من خلال هذه الحكاية مدى حرص الشاعر على استظهار الدافع للإبداع.

ويورد ابن رشيق رأي أحد النقاد قبله، فيقول "سألت شيخًا من شيوخ هذه الصناعة: ما يعين على الشعر؟ فقال: زهرة البستان، وراحة الحمَّام "[42]، فقد جعل هذا الشيخُ الرياضَ، وزهرهَا الفوَّاح، وراحةَ البدنِ في الحمَّامات من المهيئات التي تعين الشاعر على القول؛ لأنهما يوفران راحةً نفسيَّةً، وصفاءً ذهنيًا يتناسب مع صناعة الشعر.

ويرى بعض أصحاب هذه الصناعة " أنَّ الطعام الطيِّب، وسماع الغناء، يُرقُّ الطبع، ويصفي المزاج، ويعين على الشعر"[43]، فكأنهم يدعون الشاعر إلى اختيار هذه المهيئات لتقوى همته في قول الشعر.

ولا يبتعد عن الأفكار السابقة قول القائل " من أراد أن يقول الشعر فليتعشق، فإنَّه يَرِق، وليروِ، فإنّه يُدِلُّ، وليطمع، فإنَّه يصنع "[44]

ويروي ابن رشيق قول الخليع "من لم يأتِ شعره مع الوحدة فليس بشاعر، قالوا يريد الخلوة، وربما قالوا يريد الغربة، كما قال ديك الجن : ما أصفى شاعر مغتربٌ قط "[45]، فالخليع قد ذكر الوحدة، وأخذ النقاد في بيان ذلك، فمنهم من قال: هي الخلوة، ومنهم من ظنَّ أراد الغربة، استنادًا إلى قول ديك الجن الحمصي الذي يبين أنه لم ينقطع شاعر مغترب، ولعل الرأي الراجح أنه أراد الخلوة؛ لأن الغربة مُخْتَلَفٌ فيها، ففي حين يراها البعض باعثًا على القول، نجد ابن بسَّام الشنتريني يورد في الذخيرة أشعارًا لابن شرف القيرواني ليست في المستوى الفني المعروف عنه، ويعلق عليها بقوله " وما أمتري أن الغربة فلَّت غَرْبَ طبعه، وغسلت عن جوانحه، وأطفأت نار قريحته"[46]، وهذا تصريح من ابن بسام أن الغربة هي السبب في تدني المستوى الفني للشعر، وضعف موهبة الشاعر.

وبعد ذلك يقرر حازم القرطاجني أنه " لا تكتمل تلك المهيئات للشاعر إلا بطيب البقعة، وفصاحة الأمة، وكرم الدول، ومعاهدة التنقل والرحلة "[47]، فهذه هي الأسس التي يقوم عليها الجانب الفني عند الشاعر، والروافد التي تنمي موهبته الشعرية، وتصقلها " فقلَّما برع في المعاني من لم تنشئه بقعة فاضلة، ولا في الألفاظ من لم ينشأ في أمة فصيحة، ولا في جودة النظم من لم يحمله على مصابرة الخواطر في أعمال الروية الثقة بما يرجه من تلقاء الدولة، ولا في رقة أسلوب النسيب من لم تشط به عن أحبابه رحلة، ولا شاهد موقف فرقة"[48]

كما يذهب حازم إلى أن " أحق البواعث بأن يكون السبب الأول الداعي إلى قول الشعر هو الوجد والاشتياق، والحنين إلى المنازل المألوفة وآلافها عند فراقها، وتذكر عهودها وعهودهم الحميدة فيها "[49]، لأن ذلك جعل الشعراء يقصدون محاكة " البيوت التي كانت أكنان العرب ومساكنها، وهي بيوت الشعر، لكونهم يحنون إلى ادكار ملابسة أحبابهم لها، واستصحابهم لها واشتمالها عليهم بالأقاويل التي يقيمون المعاني المنوطة بها في الأذهان مقام صورهم وهيآتهم، ويجعلونها أمثلة لهم ولأحوالهم "[50]

ومن هذا كلّه نستطيع أن ندرك اهتمام النقاد والبلاغيين الأوائل، والشعراء . أيضًا . باختيار المهيئات الملائمة، والمناسبة لقول الشعر، والتفنن فيه، حتى غدت تلك المهيئات أساسًا في الفكر النقدي، والإبداعي لتفوق شاعر على آخر.

خاتمة :

مما سبق يمكننا أن نخلص إلى نتيجة مهمة، وهي إن الموهبة الشعرية غير كافية لإبداع القول الشعري، وإنما يحتاج الشاعر إلى مهيئات تعينه على إنتاج الشعر، والتفنن فيه، ويتضح لنا أن الفكرة التي تذهب إلى القول بأن الإبداع الشعري يأتي بفعل المهيئات يمكن أن نعدُّها الفكرة العملية ذات الطابع النقدي الحقيقي في التعامل مع الفن الشعري، إذ ظهرت جلية في الوعي النقدي العربي، فكثرت فيها الآراء والأقوال ، حتى إن بعض المهتمين بصناعة الشعر شعراء كانوا أو نقادًا قد وجهوا النصح المباشر للشعراء بالإفادة القصوى من تلك المهيئات والعوامل التي ستكون عاملاً مهمًا في صقل مواهبهم والارتقاء بمستواهم الفني في قول الشعر، وذلك مما يدل على تقدير نقادنا السابقين للمهيئات عاملاً مؤثرًا في العملية الإبداعية الشعرية، واتخاذهم إياها معيارًا نقديًا في رؤيتهم للأعمال الشعرية .

الهوامش

1) الحيوان . أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت / 255هـ) . تحقيق/ عبد السلام محمد هارون . دار الجيل . بيروت . 1996م . 123/3

2) ينظر الشعر والشعراء . ابن قتيبة الدينوري (ت/276هـ) . تحقيق / أحمد محمد شاكر . دار المعارف . مصر . 1966م . 80/1

3) نفسه . 513/1 ، عيار الشعر . ابن طباطبا العلوي . (ت/322هـ) . تحقيق د/ محمد زغلول سلام . منشأة المعارف . الإسكندرية . د.ت . ص163

4) العمدة في محاسن الشعر وآدابه . ابن رشيق القيرواني (ت/456هـ) . تحقيق د/ محمد قرقزان . ط1 . دار الفكر . بيروت . د.ت . 247/1

5) كتاب الصناعتين . أبو هلال العسكري (ت/395هـ) . تحقيق/علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم . ط3 . دار الفكر العربي . القاهرة . 1987م . ص23

6) الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني (ت/356هـ) . تحقيق د /إحسان عباس ، وآخرين . ط2 . دار صادر . بيروت .2004م 27/8

7) نفسه . 80/9

8) العقد الفريد . ابن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ) . تحقيق د/ عبد المجيد الترحيني . دار الكتب العلمية . بيروت . ط1 . د.ت . 120/6

9) ينظر العمدة . 373/1

10) نفسه . 204/1

11) نفسه . 204/1

12) جمهرة أشعار العرب . . لأبي زيد القرشي . دار الكتب العلمية . بيروت . ط1 . **1986م** . ص 78

13) ينظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . يحيى بن حمزة العلوي اليمني . تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي . المكتبة العصرية . بيروت . 2008م .1/ 19

14) ينظر صبح الأعشى . للقلقشندي (ت . 821هـ) . وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة . د.ت . 318/2

15) ينظر العمدة . 1062/2

16) زهر الآداب وثمر الألباب . أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت . 453هـ). تحقيق / أ. د/ يوسف علي طويل . ط1. دار الكتب العلمية – بيروت – 1417 هـ – 1997م 49/2 . وينظر المقامة القريضية لبديع الزمان الهمذاني . تحقيق محمد عبده . ط3 . دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – 1426هـ – 2005م . ص9

17) منهاج البلغاء وسراج الأدباء . حازم القرطاجني (ت/684هـ) . تحقيق/ محمد الحبيب ابن الخوجة . ط3 . دار الغرب الإسلامي . بيروت . 1986م . ص11

18) نفسه . ص11

19) البيان والتبيين . الجاحظ (ت/255هـ) . تحقيق وشرح /حسن السندوبي . ط1 . دار إحياء العلوم . بيروت . 1993م . 140/1 .

20) ينظر الشعر والشعراء . 82/1،81

21) كتاب الصناعتين . ص133

22) زهر الآداب وثمر الألباب .113/1.

23) العمدة . 375/1

24) ينظر نفسه . 377/1.

25) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ابن بسام الشنتريني (ت /542هـ) . تحقيق . د/ إحسان عباس . ط1 . دار الثقافة . بيروت . 1988م . ق1. م1 . ص438 .

26) الشعر والشعراء . 80/1

27) ينظر نفسه . 79/1

28) العمدة . 375/1

29) منهاج البلغاء . ص40

30) نفسه . ص40

31) ينظر الشعر والشعراء . 81/1

32) ينظر نفسه .244/1

33) الأغاني . 23/8

34) ينظر : اختيار الممتع في علم الشعر وعمله . أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي(ت . 405هـ) . تحقيق/ د/ محمود شاكر القطان . ط1 . دار المعارف القاهرة . 1983م . 76/1 .

35) ينظر العمدة . 378/1

36) نفسه . 374/1

37) نفسه . 374/1

38) الطبع والصنعة معيارًا نقديًا في النقد القديم عند العرب . د/ طاهر عبد الرحمن قحطان . بحث منشور في مجلة الباحث الجامعي . جامعة إب . عدد/ يونيو 2008م . ص122

39) العمدة . 374/1

40) نفسه . 374/1

*) البيت المصهرج : المطلي بالصاروج ، وهو الكلس وأخلاطه .

41) العمدة . 377/1 ،378

42) نفسه . 380/1

43) نفسه . 381/1

44) نفسه . 381/1

45) نفسه . 382/1

46) الذخيرة . ق4 . م1 . ص221

47) منهاج البلغاء . ص42

48) نفسه . ص42

49) نفسه . ص249

50) نفسه . ص249

المصادر والمراجع

1) اختيار الممتع في علم الشعر وعمله . أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي(ت . 405هـ) . تحقيق/ د/ محمود شاكر القطان . ط1 . دار المعارف القاهرة . 1983م.

2) الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني (ت/356هـ) . تحقيق د /إحسان عباس ، وآخرين . ط2 . دار صادر . بيروت .2004م.

3) البيان والتبيين . الجاحظ (ت/255هـ) . تحقيق وشرح /حسن السندوبي . ط1 . دار إحياء العلوم . بيروت . 1993م.

4) الحيوان . أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت / 255هـ) . تحقيق/ عبد السلام محمد هارون . دار الجيل . بيروت . 1996م.

5) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ابن بسام الشنتريني (ت /542هـ) . تحقيق . د/ إحسان عباس . ط1 . دار الثقافة . بيروت . 1988م.

6) زهر الآداب وثمر الألباب . أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت . 453هـ). تحقيق / أ. د/ يوسف علي طويل . ط1. دار الكتب العلمية – بيروت – 1417 هـ – 1997م .

7) الشعر والشعراء . ابن قتيبة الدينوري (ت/276هـ) . تحقيق / أحمد محمد شاكر . دار المعارف . مصر . 1966م.

8) صبح الأعشى . للقلقشندي (ت . 821هـ) . وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة . د.ت.

9) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . يحيى بن حمزة العلوي اليمني . تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي . المكتبة العصرية . بيروت . 2008م.

10) الطبع والصنعة معيارًا نقديًا في النقد القديم عند العرب . د/ طاهر عبد الرحمن قحطان . بحث منشور في مجلة الباحث الجامعي . جامعة إب . عدد/ يونيو 2008م.

11) العقد الفريد . ابن عبد ربه الأندلسي (ت /328هـ) . تحقيق د/ عبد المجيد الترحيني . دار الكتب العلمية . بيروت . ط1 . د.ت

12) العمدة في محاسن الشعر وآدابه . ابن رشيق القيرواني (ت/456هـ) . تحقيق د/ محمد قرقزان . ط1 . دار الفكر . بيروت . د.ت.

13) عيار الشعر . ابن طباطبا العلوي . (ت/322هـ) . تحقيق د/ محمد زغلول سلام . منشأة المعارف . الإسكندرية .

14) كتاب الصناعتين . أبو هلال العسكري (ت/395هـ) . تحقيق/علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم . ط3 . دار الفكر العربي . القاهرة . 1987م.

15) مقامات بديع الزمان الهمذاني . تحقيق محمد عبده . ط3 . دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – 1426هـ – 2005م .

16) منهاج البلغاء وسراج الأدباء . حازم القرطاجني (ت/684هـ) . تحقيق/ محمد الحبيب ابن الخوجة . ط3 . دار الغرب الإسلامي . بيروت . 1986م.